

يندرج كتاب ابن وهب⁽³⁾ ضمن كتب البيان، لكنه لا يكتفي بجعل كتابه ذخيرة نصية يجمع فيها مختلف أجناس الكلام التي يبرز فيها البيان في أبهى صوره، أو يختفي بحضور ما يسهم في التشويش عليه، مع إعطاء أخبار عن الشعراء والكتاب، كما فعل الجاحظ مثلاً. إنه ينظم مادته، ويرتب أفكاره، ويقدمها بمنهجية دقيقة وصارمة. ينطلق أولاً من تحديد وجوه البيان الأربعة، ويتحدث بعد ذلك عن كل منها. هذه الأوجه هي: الاعتبار والاعتقاد والعبارة والكتابة. فالأول بيان الأشياء بذاتها. والثاني هو البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكرة واللب، والثالث هو الذي يتم بواسطة اللسان. والرابع بالكتاب الذي يبلغ منه من بعد أو غاب (ص 60).

ما نود التركيز عليه هنا هو الوجه الثالث، وخصوصاً ما اتصل منه بموضوعنا. ينطلق ابن وهب من أن سائر العبارة، عند العرب، إما يكون منظوماً (الشعر)، أو منثوراً (الكلام). وبما أنه يسعى إلى تحديد أساس البيان، يبين أن الشعر والنثر معا يعرفان البلاغة والعي والإيجاز والاسهاب، أي أن هذه العناصر جميعاً تقع عليهما (ص 161). ويقوم بالشيء نفسه وهو يتحدث عن فنون الشعر الأربعة (المديح - الهجاء - الحكمة - اللهو)، وفنون النثر (الخطابة - الترسل - الاحتجاج - الحديث)، وذلك لأن «البلاغة في الجميع واحدة، والعي قريب من قريب» (ص 191).

إن البعد البلاغي هنا خالص لتكوين العبارة، وهو يتعلق أكثر بطريقة التعبير، وقدرتها على الإبانة بناء على ما جاء على لسان العربي الفصيح. لكنه عندما يتحدث عن الجدل والمجادلة يتجاوز مسألة التعبير إلى المحتوى، لأنه يرى أن الجدل بدوره يمكن أن يدخل في الشعر والنثر معا، وهو ينقسم إلى قسمين: محمود ومذموم. فالمحمود يقصد به الحق، ويستعمل فيه الصدق. أما المذموم، فهو ما أريد به الممارسة والغلبة، وطلب الرياء والسمعة. (ص 222). واضح من خلال استعمال الحمد والذم تعلق العبارة بمحتواها ومضمون قيمتها النصية أو الكلامية.

يتأكد لنا هذا التقسيم أيضاً عندما ينتقل إلى معالجة «الحديث»، ويرصد لنا مختلف أوجهه، حيث يبرز لنا بجلاء الطابع الذي حكم التصور البلاغي العربي